بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لم يكن إحساسى بخطورة هذه النصوص وليد المعايشة وما يتولد عنها من ألفة، فالمعايشة والألفة قد تثير مشاعر العطف وقد تدفع الباحث بعيدا عن الحق أو الأحكام الموضوعية. وهناك الكثير من الباحثين والعلماء الذين بدأوا دراساتهم عن موضوع معين بأفكار مسبقة، وقد تكون عدائية وبعد الإندماج فى الموضوع يتحول الباحث مدفوعا بالألفة والتعاطف إلى مدافع، وقد يتحول إلى شخص متعصب. فقد سار الشوط من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ذلك أنه يعيش أسير المشاعر التى تتولد عن الإلحاح الفكرى الذى يتناوله، وعلى سبيل المثال النظرى ذلك الذى بدأت حياته شيوعياً وحاول تطويع الإسلام لخدمة الفكر الشيوعى، وإذا به بعد فترة قد تحول إلى مفكر ومدافع عن الإسلام.

وكاتب هذه السطور لا ينكر له قد يكون متأثرا بهذه الظاهرة باعتبار الجذور الريفية، ولكنه عندما يتابع ما يقوله الغير يزداد اقتناعا بأن اهتمامه أو توجهاته ليست متولدة عن مشاعر أو تعصب، كما أنه يقدم النصوص كما هى بكل ما لها وما عليها بل إن هناك أمثالا قد يرى آخرون أنه لا يجوز تسجيلها، فالمثل «تجيبه فى اللفة وتقول دا خلقته شريفة» عن العاهرة وغيره من الأمثال السلبية التى سجلتها من منطلق أننا لا نعيش فى مجتمع المدينة الفاضلة، والبشر بشكل عام هم البشر.

وأعود إلى الإشارة بأن هذه النصوص المثلية أو الأقوال السائرة تعد من أهم عناصر الثقافة الوطنية وأنها تلعب أخطر الأدوار دون أن يلتفت إليها المثقفون. ويكفى أن أورد بعض الإشارات التى تفيد فى هذا، ففى بريد الأهرام ١٩٩٢/٨/٢٤ كتب د. أحمد محمد عبد الله، طبيب نفسى يقول «واضح أن الكتابات التى ظهرت فى غضون الأحداث الأخيرة ـ التطرف ـ أن هناك نقصا كبيرا

فى فهم الشخصية المصرية وطباعها، وأعتقد أن الدراسات التى تمت فى هذا الميدان إما سطحية أو غير متوافرة لمن يريد الاطلاع، وكنت قد حصلت على نسخة من كتاب هام فى هذا الميدان عنوانه «الشعب المصرى فى أمثاله العامية» وهو دراسة للشخصية المصرية من خلال الأمثال الشعبية والجهد المبذول فى الكتاب كبير، وأعتقد أنه كتاب مهم ليس للباحث المتخصص ولكن لكل مثقف مصرى» ـ وأعتذر للقارئ العزيز عن استكمال الشكوى حرجا أو حياء ـ ولكنى أضيف كلمة كتبها وهى قول «وأطمع فى الإهتمام بهذا الكتاب» فالقضية ليست فى مؤلف الكتاب ولكن محل الإهتمام هو موضوع الكتاب وأن النصوص التى اعتمد عليها الكتاب تدخل فى صميم الشخصية المصرية.. وبعد هذه الكلمة بعام، أى فى ١٩٩٣/٨/٢٣ كتب د. السيد ياسين ـ وهو من أبرز علماء الاجتماع السياسى ومن كتاب الأهرام- كتب مقالا بعنوان «أزمة الهوية والمعرفة المشوهة من واقع تساولات الشباب» وقد أرجع هذه الأزمة إلى ثلاثة محاور هى:

(١) قصور النظام التعليمى

(٢) فشل السياسة الثقافية

(٣) الصراع السياسى

ونتوقف عند المحور الثانى وهو فشل السياسة الثقافية فيقول بالحرف «أما السياسة الثقافية فيظهر فشلها الأكبر فى القسمة الجائرة السائدة بين ثقافة النخبة والثقافة الشعبية والتى ـ فى جوانبها السلبية هى التى تشكل العقل المصرى العام.. وهذا الانفصام الثقافى أحد جذور التطرف الفكرى والذى أدى من بعد إلى الإرهاب.. نخبة سياسية وفكرية تعيش فى العواصم وتحتكر صنع القرار السياسى والاقتصادى والثقافى وغالبية يتشكل وعيها بتأثير جماعات نشيطة تصب دعاياتها المثيرة فى اتجاه هدم شرعية الدولة ونقض أسس المجتمع القائم تمهيدا لإنشاء مجتمع جديد وفق قراءة مشوهة للإسلام لا تتوانى عن إستخدام العنف للقيام بالتغيير الاجتماعى المنشود»..

وأقول إن هذه القسمة الجائرة والسائدة بين ثقافة النخبة ـ وهى ثقافة ذات جذور داخلية وخارجية والثقافة الشعبية ـ وهى ثقافة محلية ـ هذه القسمة ترجع

إلى سلوك استعلائى نتج عن دوران المثقفين فى دائرة مراكز صنع القرار وابتعادهم عن الجذور هروبا من البدايات المتواضعة أو غفلة غير مقصودة بحكم الواقع فى دوامة التحضر واللهاث وراء التطور وهو ما باعد فكريا وإجتماعيا بين الماضى والحاضر..

وقرأت أيضا كلمة جاءت فى جريدة الوفد ١١/ ٤/ ١٩٩٦، ضمن حوار مع د. حامد طاهر عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وهو أصلا أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بالكلية ـ وعندما سئل: كيف يمكن أن نتأهب لقرن جديد نحن على أعتابه؟

أجاب: أن ما يشغل المثقفين فى غالبيتهم لا يرقى إلى مستوى تأهلينا على نحو كاف لدخول القرن الحادى والعشرين، ومع ذلك فإن فى مصر طاقات كثيرة وعقولا مبدعة ومواهب كامنة.. وهذا البلد يحتاج فقط إلى أن يعيد اكتشاف ذاته إن فى هذا الشعب طاقة وقوة وحيوية ورغبة فى بناء الحضارة الإنسانية ولكنها معطلة وغائمة وغائبة ومحاطة بالكثير من الضباب والقيود.. إننى أتذكر «شامبليون» الذى فك رموز حجر رشيد فأطلع العالم على عظمة حضارتنا القديمة، وما ننتظره هو أنه يظهر من بيننا نحن المصريين شامبليون مصرى يفك أسرار عظمة هذا الشعب».

وعندما سئل: أريد أن أعرف ما الذى يشغلكم كمثقفين اليوم؟.. أجاب: هناك مسافة بين الطرفين ـ بسطاء الناس والمثقفين ـ وهى كبيرة وأعتقد أنه من الأفضل أن يلوذ السائل بما قاله الإمام محمد عبده ذات يوم «إذا أردت أن تعرف حقيقة أى شعب من الشعوب وما يدور فى عقله الجمعى فاجلس على مقهى مع عامة الناس واسمع وانظر حولك»..

لقد التفت القدماء إلى أهمية وخطورة ما يردده بسطاء الناس وردد المحدثون ما كان يدور بين القدماء ولكنهم لم يتجهوا إلى جمع هذه الأقوال أو دراستها.. إن هذه النصوص ظلت محل ازدراء بين المثقفين على اختلاف مشاربهم تقليديين وغير تقليديين، بل إن هذه النصوص والأفكار الشعبية قد حيل بينها وبين كافة مراكز الأبحاث العلمية كما لو كانت وباء يجب محاصرته حتى لا يمتد تأثيره، فمنذ إنشاء

كرسى الآداب الشعبى فى كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٦٠م لم تهتم جامعات مصر رغم كثرتها بهذه الدِراسات، أما إنشاء معهد الفنون الشعبية فقد كان بفضل رواد الأدب الشعبى الذين أنشأوا كرسى الأدب الشعبى بكلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة وحماسهم لتأصيل هذه الدراسات[١]..

ومع ذلك فإن الآداب الشعبية وخاصة الأمثال موجودة بيننا وتسير على كافة المستويات، وهى ذات حضور واضح على المستوى الإعلامى حتى ليمكن أن تمثل ظاهرة تستحق الوقوف عندها بمعنى أنه لو استطاع أحد الباحثين أن يتابع الأمثال فى الصحافة المصرية لمدة عام لقدم لنا دراسة ممتازة عن دورها الوظيفى فى الصحافة من ناحية ودورها الوظيفى فى الحياة الاجتماعية المصرية من ناحية أخرى.. وفى السطور التالية أحاول بقدر المستطاع أن ألقى ضوءا سريعًا على العلاقة بين الأمثال والصحافة ودورها الإعلامى..

أولا: الأمثال والصحافة

أن المتابعة اليومية للأمثال فى الصحافة المصرية تؤكد أن هناك ارتباطا كبيرا بينهما، فالأمثال عبارة عن تيار هام أو خط واضح موجود فى الأخبار والمقالات والتعليقات والعامود الصحفى والتحقيقات، ودخلت الأمثال أيضا كعناوين للأخبار الطريفة والغريبة كعنصر من عناصر جذب انتباه للقارئ.. فقد أصبح المثل عنوانا صحفيًا يوميًا على أحد أبواب صحيفة «الأخبار» منذ سنوات عديدة وهو باب التبرعات الذى دأب أصحاب دار أخبار اليوم على أمين وبعده أخوه مصطفى أمين ـ رحمهما الله ـ على نشره يوميا فى صحيفة الأخبار وفيه يتم تسجيل أسماء المحسنين تحت عنوان «مصر بخير» وهذا العنوان من الجمل التى صارت مثلا، وقد دخلت الأمثال أيضا إلى الإعلانات حتى لقد لاحظت أخيرا مثلا كان قد انتشر فيما قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، ثم توارى المثل فى عالم النسيان ثم عاد للظهور فى

(١) أذكر بمزيد من الفخر والاعتزاز أستاذى د. عبد الحميد يونس وأستاذى د. عبد العزيز الأهوانى وأستاذى د. سهير القلماوى وأيضا جيل أساتذتهم الذين وجهوهم إلى هذه الدراسات د. طه حسين والأستاذ/ أمين الخولى

إعلان نشر فى أهرام ٥/٤/١٩٩٦، وهذا المثل هو «الفورد فورد ولو دابت رفارفه».. فلقد انتشر هذا المثل قبل قيام ثورة ١٩٥٢ بين الميكانيكية وأصحاب السيارات حيث لم يكن فى السوق المصرية غير السيارات الأمريكية والإنجليزية وبعد الثورة توقف استيراد هذه السيارات بسبب الإختلافات السياسية بين مصر وكل من أمريكا وإنجلترا، وعندما عاد الاستيراد للسيارات الأمريكية أخيرا ١٩٩٦ يعود المثل ضمن إعلان عن هذه السيارات لتذكير الناس، ولترويج السلعة.

وفى هذا الاتجاه فإن المثل لم يترك أى موضوع من موضوعات الصحافة إلا.. وشارك فيه: فى الرياضة ـ الفن ـ السياسة ـ الاقتصاد ـ الإعلان ـ الثقافة والفكر ـ الدين.. إلخ.

فقد جاء فى تحقيق رياضى فى مجلة أكتوبر ٢/١٩٩٦ بقلم المعلق الرياضى ماهر فهمى مجموعة من الأمثال عددها ستة وعشرون مثلا ضمن مقال مكون من ١٠٠٠ كلمة، بمعنى ١٠٢ كلمة فى صيغة مثل من: ١٠٠٠ كلمة أى ١/ ١٠ من حجم المقال.. والمعروف أن كتابات الأستاذ ماهر فهمى تتميز بأسلوب شعبى يختلط بالأسلوب العربى الفصيح ومن ثم جاءت الأمثال تنسب ضمن المقال، ومن ذلك المثل «كافى خيره شره»، «اللى بيجى فى الريش بقشيش»، «خد من التل يختل».. «لاقينى ولا تغدينى»، «القفة أم ودنين يشيلوها اتنين»، «على قد لحافك مد رجلك»، إلخ، وكان موضوع المقال يدور حول لاعب آثار مشاكل بين نادى الزمالك واتحاد الكرة..

كما دخلت الأمثال إلى فن الكاريكاتير الصحفى ففى جريدة الأهالى ١/١٢/١٩٩٣ يوجد كاريكاتير لمحمد حاكم عبارة عن صورة إرهابى يصوب بندقية لأحدهم ووراءه أمه، وكتب فوقها «البطالة» وأيضا أبوه، وكتب فوقه «لولا شفنا أمك وأبوك لقلنا الملايكة اللى جابوك».. وكتب الرسام بجانب ذلك: «مثل عامى»..

ويكفى فى هذا المجال أن أشير إلى أن الصحف اليومية الثلاث الأهرام والأخبار والجمهورية قد أوردت فى يوم واحد ٢٥ مثلا تفصيلها كالآتى:

* الأهرام ٢٥/١٢/١٩٩٣: فى تحقيق عزت السعدنى ٨ أمثال، وفى مقال

بعنوان «قول على قول» محمد اسماعيل على مثل واحد، وفى مقال «الصوت والصدى» ليوسف جوهر مثلان، وفى مقال سعد الدين وهبة مثل واحد وقد أورده الكاتب مرتين وهو: «جت الحزينة تفرح مالقتلهاش مطرح»..

* أخبار اليوم ٢٥/ ١٢/ ١٩٩٣: تعليق لهالة سرحان «مثل واحد»، عامود «أما بعد» لمحمود السعدنى «أربعة أمثال»، تحقيق بقلم عاطف حزين «مثل واحد». كاريكاتير فلاح كفر الهنادوة «مصطفى حسين وأحمد رجب» ثلاثة أمثال، أما صفحة الرياضة فقد أوردت مثلان..

* الجمهورية ٢٥/ ١٢/ ١٩٩٣ عنوان كبير عبارة عن مثل وهو «اللى يسأل ما يتوهش» وهو مثل أقرب إلى المانشيت..

بمعنى أن الأهرام أوردت ١٣ مثلا، أخبار اليوم ١١ مثلا والجمهورية مثل واحد عبارة عن ما نشيت، وهذه الأمثال جاءت ضمن مفردات العلم الصحفى بأنواعه ففى التحقيق ١٠ أمثال، العامود اليومى ٥ أمثال، والكاريكاتير ٣ أمثال، الرياضة مثلان، والمقال خمسة أمثال...

وفى عام ١٩٩٨٤ دأب الأستاذ محسن محمد[١] على كتابة مقال أسبوعى فى صحيفة أخبار اليوم بعنوان «المشى فوق الأشواق» وفى داخل المقال عنوان فرعى «أمثال» يكتب تحته بعض الجمل على شكل حكمة أو أمثال، وفى أخبار اليوم ٢٩/ ١/ ١٩٩٤ كتب ٤٤ مثلا من هذا القبيل وبعضها تحريف لبعض الأمثال الشعبية منها المثل «مائة عدد خارج البيت أفضل من عدد واحد داخله» وأصله المثل الشعبى «ألف عدو برا الدار ولا عدو جوا الدار»..

وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على أن المثل عنصر مؤثر يستخدمه الصحفيون للتأثير فى صناعة الرأى العام وهى الوظيفة الأولى للصحافة حيث تصوغ اتجاهات الناس بمزيج من أفكار المثقفين وأفكار بسطاء الناس..

وقد يكون من الطريف أن نورد استعمالا آخر للصياغة المثلية وأسلوب توظيفها صحفيا.. فقد جاء فى أخبار اليوم ١٧/ ٩/ ١٩٩٤ هذا الخبر «القول المثل المأثور:

(١) كان رئيسا لمجلس إدارة دار التحرير للطبع والنشر وتصدر صحيفة الجمهورية ثم أحيل إلى المعاش..

فلان «غرق فى شبر مية» «لكن التعبير المجازى تحول إلى حقيقة فى أول حادث من نوعه.. كان الشاب الاسترالى بيتر ويلز (٢٤) عاما يرعى حديقته حينما أحضرته له والدته كوبا كبيرا من الماء شربه دفعة واحدة دون توقف وبدلا من أن يأخذ الماء طريقه الطبيعى داخل المرىء دخل فى القصبة الهوائية للشاب فأغرق رئتيه وكان تشخيص أن الشاب مات غرقا.. ولكنه غرق فى شبر مية»، وقد نقلت الخبر بكامله، وكان عنوان الخبر «غرق فى شبر مية»، والطريف أن الصحيفة أوردت فى الصفحة نفسها عنوانا آخر عبارة عن مثل هو «الحب أعمى»[1] عن إمرأة ألقت على زوجها مادة كاوية لمنعه من تطليقها وبررت ذلك بدافع الحب الشديد لزوجها»..

ونذهب إلى يوم آخر وهو يوم ٢٦/ ٢/ ١٩٩٤ ـ أى بعد حوالى شهرين لنرى ماذا جاء من أمثال فى كل من أخبار اليوم والأهرام..

فقد أوردت «أخبار اليوم» عشرة أمثال توزيعها كالآتى: فى تحقيق لها عبد الفتاح أوردت مثلا واحدا، وفى عامود «قراءات» لكمال عبد الرءوف.. مثلان، وفى مقال لعبد الله عبد البارى مثل جاء على لسان عيزرا فايتسمان رئيس إسرائيل عند زيارته لمصر ١٩٧٨ يقول «الدنيا مصالح خد وهات» وفى عامود لمحمود السعدنى مثلان، وفى كاريكاتير فلاح كفر الهنادوة مثلان وفى صفحة الفن مثل واحد وفى عامود «فكرة» لمصطفى أمين مثل واحد..

أما فى «الأهرام» فى نفس التاريخ ففى تحقيق لعزت السعدنى ثمانية أمثال وورد فى مقال لمحمود عمارة رئيس جمعية رجال الأعمال المصريين فى فرنسا المثل الذى يقول «الباب اللى يبجى منه الريح سده واستريح»، وفى عامود «مواقف» لأنيس منصور مثل أعاد صياغته فيقول «الإيد التى لا تستطيع أن تقطعها فتقبيلها أفضل» وأصله بالصياغة الشعبية «الإيد اللى ما تقدرش عليها بوسها» أى عشرة أمثال فى الأهرام..

أما فى أخبار اليوم بتاريخ ١٥/ ٧/ ١٩٩٥ وتحت عنوان «همسات رياضية» بقلم

(١) فى تفسير ابن كثير حـ١/ ١٢٦ طبع الحلبى عن أبى الدرداء عن النبى (ص) قال: حبك للشىء يعمى ويصم ويوجد المثل «مراية الحب عميا»، «الحب أعمى وأطرش».

فاروق الشاذلى، وهذه الهمسات عددها عشرة وتتراوح الهمسة بين سطر وسطرين، فقد أورد فيها ثمانية أمثال هى: «اللى يخاف من العفريت يطلع له» واستبدل الكاتب كلمة «العفريت» بالجمهور، «من قدم السبت لقى الحد قدامه» «على قد لحافك مد رجليك»، «دارى على شمعتك تقيد»، «قليل البخت يلاقى العظم فى الكرشة»، حرفها الكاتب إلى «قليل الخبرة يلاقى حظه العاثر فى اللستة[1]»، «ماحدش واخد منها حاجة»، «كلنا لها»، «تجرى جرى الوحوش غير رزقك لن تحوش» بمعنى أن الأمثال موجودة فى هذه الهمسات بواقع ٤١ كلمة: ١١٥كلمة. أب بنسبة ٢ : ٥ . .

وليس هذا فحسب بل لقد دخل المثل كحوار على صفحات الجرائد ففى حديث لبرنامج «صباح الخير» الخميس ١/٦/ ١٩٩٥ تحدث د. فتحى سرور رئيس مجلس الشعب بخصوص قانون العقوبات الخاص بجرائم النشر وما أثير حوله من ضجة فقد قال: «الصحفى من حقه أن يقول رأيه بحرية ودون الكذب، والمثل يقول «إمشى عدل عدوك يحتار فيك»، وفى اليوم التالى ٢/٦/ ١٩٩٥ يكتب جلال دويدار رئيس تحرير الأخبار مقالا بعنوان «يقتلون القتيل ويمشون فى جنازته» على عامودين ويستكمل المقال بنفس العنوان على الصفحة الثالثة وعلى اتساع الصحيفة أى على ثمانية أعمدة، ويدور حول قانون العقوبات الصحفية الذى سبق أن تحدث عنه د. فتحى سرور فى برنامج «صباح الخير». .

ويجدر بنا أن نلتفت إلى أن هذا الحوار لا يدور بين البسطاء من الناس، ولكنه يدور بين مثقفين على أعلى مستوى سياسى وثقافى، ولهما تأثير قوى على اتجاهات الرأى العام، كما أن مادة الصراع بين الطرفين لها علاقة مباشرة بالجماهير، علما بأن خطب الطرفين موجه إلى الرأى العام، ومنه إلى الجماهير وإلى أصحاب القرار، ومن هنا يمكن اكتشاف الدور الذى يمكن أن تلعبه هذه النصوص الطائرة أو السائلة على كل المستويات ودون استثناء، وهو دور يعضد أو يساند الرأى ضد الطرف الآخر وفى خلال ذلك قد يتحول إلى قانون واجب التنفيذ كما سوف نشير فيما بعد عند الحديث عن الأمثال فى فكر المثقفين وأجهزة الحكم. .

(١) اللستة كلمة أجنبية شائعة بمعنى «القائمة».

وفى السطور السابقة حاولنا ألا يخرج حديثنا عن العلاقة القائمة بين الأمثال وفن التحرير الصحفى أو الاستخدام الصحفى للأمثال.. ولم يتوقف هذا الدور على الإعلام الصحفى أو المقروء ولكنه يمتد إلى الإعلام المسموع فى كل من الإذاعة والتليفزيون، وقد شارك كاتب هذه السطور فى العديد من البرامج فى قنوات التليفزيون الأولى والثانية والثالثة وخارج مصر، كما شارك فى الجانب الإذاعى وكان جواز المرور إلى المشاركة فى هذه البرامج هى النصوص المثلية الى أصبحت شغلى الشاغل ومحل الإهتمام منذ سنوات عديدة باعتبارها من أهم المداخل لدراسة الشخصية المصرية..

ثانيا: الأمثال فى فكر المثقفين

لقد أشرت فى صدر هذه المقدمة إلى رأيين لكاتبين أحدهما من أبرز علماء الإجتماع السياسى والآخر من المفكرين ذوى الثقافة التقليدية..

الأول: هوالدكتور السيد ياسين الذى ارجع الأزمة الثقافية إلى القسمة الجائزة بين ثقافة النخبة والثقافة الشعبية.

والثانى: هو الدكتور حامد طاهر الذى أعاد إلى الأذهان ما كان يردده الشيخ محمد عبده من أن حقيقة أى شعب من الشعوب وما يدور فى عقله الجمعى لا تظهر وتعبر عن نفسها إلا بالإندماج بين عامة الناس فى أماكن تجمعاتهم كالمقهى على سبيل المثال.. ونحن نحاول من خلال السطور التالية متابعة أفكار الجماهير من خلال نصوص الأمثال التى تسربت ضمن أفكارهم وكتاباتهم وأصبحت تمثل جزءا من قناعاتهم وتوجهاتهم الثقافية ذلك أن الإنسان أيا كانت ثقافته هو ابن البيئة، فهى التى تحركه ثقافيا وسلوكيا سواء كان يعى ذلك أو لا يعيه، فالمفكر المصرى ابن البيئة المصرية يختلف عن المفكر الفرنسى ابن البيئة الفرنسية، ويختلف عن الإنجليزى أو الأمريكى أو اليابانى أو الألمانى بصرف النظر عن النزعة الإنسانية العامة التى تبدو فى كتابات الجميع، ولا يستطيع أى مفكر أن يتخلص ـ حتى ولو أراد ـ من مخزوناته الفكرية منذ الصغر أو من تأثيرات المحيط الذى تربى فى أحضانه..

أن المتابعة لنصوص الأمثال تؤكد أن هذه النصوص تشيع بين المثقفين بدرجة لا

تقل عما بين الجماهير، فشريحة المثقفين هى فى غالبيتها من أبناء الطبقات الشعبية واستوعبت ثقافات الشوارع والأزقة والريف فى بداية الحياة ثم أكملت ثقافتها مدرسيا، ولا تستطيع الثقافة المدرسية أن تلغى الثقافة الشعبية التى انتقلت إلى الضمائر وأخذت توجه السلوك والفكر.. وتكثفت حكمة الثقافة الشعبية فى النموذج المثلى الذى يتمثل فى جمل سائرة، أو كما يطلق عليها فى الإنجليزية English Sayings وهى جمل سائرة ذات مدلول تراثى وليست تعبيرات شخصية.

وفى السطور التالية نستعرض بعضا من الأمثال التى رددها المثقفون فى فترات مختلفة ضمن سياق أفكارهم التى صاغوها للتعبير عن آرائهم، وهذه الأمثال وردت للتعبير فى نفس الوقت عن تنوع الثقافات وأحيانا تباعدها. ففى الوقت الذى تجد فيه أمثالا تعبر عن هموم الفنانين والرياضيين نجد أيضا أمثالا تعبر عن أفكار رجال الدين والمفكرين، ووجدناهم جميعا يستنجدون بمحفوظاتهم من الأمثال..

١- رجال الدين والأمثال:

الشيخ محمد متولى الشعراوى والأمثال:

* فى حديث دينى أذيع فى التليفزيون فى ٢٦/٢/١٩٩٣ يقول«عندنا فى الريف يقولون «اللى مالوش كبير يشترى له كبير»..

ويقول فى كتاب «١٠٠» سؤال وجواب فى الفقه الإسلامى»[١] عن جراحة التجميل «أنت إذا نظرت إلى زاوية النقص فى هذا الإنسان الذى تنقصه نعمة البصر ولم تنظر إليه من زاوية أخرى قد تميز فيها وتفوق، وفى ذلك نتذكر المثل العامى الذى يقول «كل ذى عاهة جبار»، أى أن لكل صاحب عاهة ميزة يتميز بها عن غيره، وهذا لكى يعطى الله له تعويضا فى المجموع. بمعنى أنه إذا نقص فى جزء عوض فى الجزء الآخر.

* وجاء فى صحيفة الأخبار (الجمعة ١٣/٨/١٩٩٣) تحت عنوان «من خواطر الشيخ الشعراوى حول القرآن» قله «على القادر أن يعمل عملا يتسع لحاجته

(١) طبع مكتبة التراث الإسلامى ج ٢، ص ١٣.

ويتسع لحاجات غير القادرين فلا يعمل على قدر حاجته ولكن على قدر طاقته، لكى تكون كلمتك من رأسك لابد أن تكون لقمتك من فاسك».. وذلك حتى لا تصبح تبيعا لمن يطعمك ولا تكون عبد اليد العليا» ورددته صحيفة الأخبار فى ٢٥/ ٢/ ١٩٩٤ فى خواطر الشيخ الشعراوى حول القرآن بصياغة «لن تكون كلمتك من رأسك إلا إذا كانت لقمتك من فاسك»، ويأتى به الشعراوى ضمن تعليقه الذى يقول فيه «ولدينا المثل الآن من حياة المسلمين الذين استذلهم غيرهم وعبثوا بمقدراتهم لأنهم لا ينتجون من القمح ما يغنيهم عن الاستيراد من غيرهم ولذلك يستعبدونهم بقبض اليد عنهم وبسطها وأنه «لن تكون.. إلخ»..

* وجاء فى مجلة (أكتوبر) ـ العدد ٩٠٣ فى ١٣/ ٢/ ١٩٩٤ فى حوار أجراه محمود فوزى مع الشيخ الشعراوى قوله «فى الحب توارى كل شىء وتجد أنهم ـ الذين كانوا يتعاركون ثم تصافوا ـ لا يعرفون ما جرى إلا بعد أن انتهى كل شىء ثم تجدهم يقولون.. شوف عمل إيه؟ والآخر يقول شوف حصل لى إيه؟ وحتى المثل الشائع يقول لك «ضرب الحبيب زى أكل الزبيب»، وفى الحوار نفسه سأله المحاور:

رغم أن الأحاديث السابقة مع فضيلتك لم تكن تحبذ الأديان الأخرى فلم يكن هناك ميل إليها ولو بالحديث فإننى أرى هذه المرة ولأول مرة أيضا تتجه بالحديث عنها بكل حب وتقدير.. هل كانت هذه التجربة لها دلالة على نفسيتك تجاه الأديان الأخرى؟..

وكان جوابه: نبهتنى إلى أشياء يجب ألا آخذها على رأى المثل الشائع «قفش كده» ولكن يجب أن أضع كل شىء فى موضعه ومادام لا يؤذينى فى دينى فما هو المانع إذن؟

* وفى حديث الشيخ الشعراوى مع زواره من قراء مجلة (الشباب) أغسطس ١٩٩٤م سأله أحدهم: كيف نفرق بين الحلم والرؤيا وهل صلاة الإستخارة لها رؤيا أم أنها بانشراح الصدر فقط؟..

وكان جوابه: هناك مثل عامى يقول «الجعان بيحلم بسوق العيش»، ويعنى ذلك

أن عقل الإنسان يحكم مضابط وجدانه حيث تتجمع الأشياء التى كان يفكر فيها وتظهر له فى هيئة حلم أما الرؤيا فتأتى فى شىء لا علاقة للشخص به».

* وفى حديث له فى ٢٢/ ١/ ١٩٩٦ قال «باب النجار مخلع»..

*** دكتورة/ عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» والأمثال:**

جاء فى أهرام ٢٨/ ٥/ ١٩٩٢ فى مقال الدكتورة بنت الشاطئ بعنوان «الأصالة والأصوليون بين الأمس واليوم» قالت.. ورسخت قيمة الأصالة فى وعى الناس يغضون من محدث النعمة «غنى حرب» وممن ينسى أصله «من فات قديمه تاه» ومن تزيى بغير زيه وادعى ما ليس له كالصلعاء.. «القرعا تتباهى بشعر بنت أختها»، «سألوا البغل عن أبوه فقال الحصان خالى».. وفى فقرة أخرى وبعد عدة سطور إنها انتقلت من دمياط إلى قرية شبرا بخوم إلى القاهرة، وتضيف قولها «وظلت قيمة الأصالة ثابتة لا تتغير يميز بها المجتمع هنا وهناك وحيثما طوفنا بأرجاء الكنانة بين الأصل والدعى بين العريق والمحدث بين الصميم والدخيل ولا يكفون عن التنكيت «بالبضاعة الأمريكانى» مثلا لكل محدث رخيص وبالغراب يتزين بريش الطاووس، وغالوا فى ثمن الأصيل ونبذ المقلد الزائف الرخيص ودخل فى موازينهم للقيم أن «الغالى ثمنه فيه»، وبلغ من تقديرهم لابن الأصول أن جعلوه «ابن ناس» نفيا لمن لا أصل له من جنس الناس..

*** خالد محمد خالد والأمثـــال:**

جاء فى مقدمة كتابه الأخير (لو شهدت حوارهم لقلت) وقد نشرتها جريدة الوفد ٤/ ٨/ ١٩٩٤، يقول «وحين تشغلنا قضايا الوطن وهمومه فتعسا يومئذ بل وسحقا لمن يقول «وأنا مالى»، أو يقول «اللى يتجوز أمى أقول له يا عمى» ويقول خالد محمد خالد إن كان من أهل الفصحى «أنا وحدى وبعدى الطوفان» على من يقول كلمته صادقا مخلصا شجاعا أن يجهر بها ويتقدم ومن لا يقدر على هذا فعليه أن يصمت»..

*** البابا شنودة والأمثال:**

جاء فى مجلة روز اليوسف العدد (٣٥٠٤) بتاريخ ٧/ ٨/ ١٩٩٥ ضمن حديث أجراه البابا شنودة بابا الكنسية الأرثودكسية المصرية مع الصحفى أحمد الجمال قوله

«بخصوص الطلاق نسمح بالطلاق لسببين: الزنا، وأما الأمر الثانى فهو تغيير الدين على اعتبار أن غصنا من شجرة قطع فلا يمكن أن يكون له اتحاد مع غصن آخر وعلى اعتبار أنه من شروط المرافقة الموافقة، والمثل يقول «شرط المرافقة الموافقة».

لقد جاءت الأمثال على ألسنة رجال الدين لتعبر عن اتجاهاتهم وانشغالاتهم وكلها انشغالات إجتماعية عامة، ولكن ما يلفت النظر هو كثرة دوران هذه النصوص فى أحاديث الشيخ الشعراوى وهو ما يتفق مع اتجاهاته الدينية وهى اتجاهات شعبية: ذلك أن أحاديث الشعراوى كلها موجهة إلى بسطاء الناس وهى امتداد للأحاديث الدينية التى كانت تعقد فى المساجد بين صلاتى المغرب والعشاء ومن ثم وجب على المحدث أن يخاطب الناس بلغتهم، ولذلك وجدنا العديد من النصوص المثلية التى تجرى فى أحاديثة.. وما يؤكد ذلك أن أحاديثه لا تقال بالعربية الفصحى ولكن تقال بمزيج من الفصحى والعامية..

وبشكل عام فقد تم توظيف المثل هنا كوسيلة للإقناع، فالشعراوى يخاطب بسطاء الناس، وخالد يخاطب السياسيين وبنت الشاطئ تخاطب الجميع والبابا شنودة اتخذ المثل كوسيلة للدفاع عن وجهة نظر دينية..

٢- المفكـرون والأمثـال:

نقصد بالمفكرين هم الذين لا يتقيدون باتجاهات معينة يدافعون عنها بطريق الالتزام، والمفكرون هم الأحرار الذين يعبرون عن آرائهم دون التقيد بخط فكرى معين، أو هم المفكرون غير النمطيين، ولذلك فلديهم مساحة كبيرة من الحرية ومن ثم فالمثل لديهم يعبر بالضرورة عن اتجاهاتهم ويدخل ضمن هؤلاء القيادات الصحفية وأساتذة الجامعات وغيرهم...

* عباس العقاد والأمثال

جاء فى كتاب (سعد زغلول سيرة وتحية) عباس العقاد، ما يأتى: يقول «وقد شاع بين الفلاحين أنفسهم المثل القائل «أن الفلاح إذا تمدن يجر على أهله داهية» وهو فيما يلوح لنا من وصفهم لا من وضع الأجانب المتمصرين لأنه أدى إلى السليقة المصرية بما فيه من روح الفكاهة والتهكم، وأنه لدليل على ما صارت إليه

حالة الأمة من الظن بنفسها قبل النهضة الأخيرة، التى عاودت بها ثقتها وكبرياءها، وإن كان المثل فى مغزاه لا يدل على تجرد الفلاح من القدرة وخلوه من دوافع الطموح»..

*** دكتور محمد إسماعيل على/ أستاذ بجامعة عين شمس والأمثال:**

جاء فى (أهرام ٨/ ٥/ ١٩٩٣) فى مقال للكاتب تحت عنوان «قول على قول» / خواطر عن الفساد» يقول فيه «.. لكن مشكلتنا كما أتصورها هى العاطفة.. العاطفة المصرية وحدها التى تبتكر ألفاظ (بلاش فضايح) (خلى الطابق مستور) (يا شماتة العدوين) إلى غير ذلك من مشاعر تنتهى بنا إلى التغطية على كل فساد.. إن هذا الأسلوب العاطفى يصلح داخل أسرة صغيرة لكنه يصبح خطيرا داخل دولة من استشراء الفساد مهما ضؤل حجمه هو النتيجة للتعتيم عليه (منعا للفضايح)..

وفى (أهرام ١٤/ ٨/ ١٩٩٣) تحت عنوان «قول على قول/ قضايا وآراء» يقول فيه تعليقا على أشكال الصراع بين العرب والفرس فسوف نجد «إعلان دمشق»(١) بما فيه من احتمالات وجود قوات مصرية سورية فى منطقة الخليج للدفاع عنها ضد أى عدوان فإننا ندرك على الفور مغزى ومعنى المثل المصرى الشعبى «اللى على راسه بطحة يحس بيها»، ذلك أن الإيرانيين تساءلوا بمرارة وسخرية عمن يكون هذا العدو الذى يمكن أن تشتبك معه مصر وسوريا. دفاعا عن الخليج»..

*** أنيس منصور والأمثال:**

جاء فى مجلة أكتوبر (١٥/ ٨/ ١٩٩٣) فى الفقرة الأخيرة من مقال للكاتب يقول فيها مثل شعبى يقول: «من عاش بالحكمة عاش بالمرض» والمعنى أن الذى يراعى الطعام والشراب ويحسبها حسابا علميا يتعب جدا فى حياته، وقد لاحظنا أن هذا النوع ـ الموسوس ـ من الناس قرفان عموما من مصافحة الأيدى والجلوس مع الناس والإقتراب منهم، وربما عاش هذا الرجل مريضا بينما عاش الآخرون فى صحة أفضل.. من المستحيل أن نعيش «الحكمة» التى يتحدث عنها المثل الشعبى،

(١) بين أربعة من دول الخليج ومصر وسوريا وظهر فى أعقاب حرب الخليج بين العراق والكويت ١٩٩١م..

والنتيجة «خليها على الله» وليست هذه حكمة شعبية فقط ولا نصيحة دينية وإنما دعوة علمية أيضا..

*** ضياء الدين داوود (رئيس الحزب الناصرى) والأمثال:**

قال ضياء الدين داوود رئيس الحزب الناصرى فى مؤتمر شعبى ضم كافة أحزاب المعارضة للتنديد بقانون الصحافة الذى صدر بخصوص تنظيم حرية النشر قال «إن الحكومة يمكن أن تروح وأن تجىء وتلك ليست القضية الأساسية فمن الممكن أن تجىء حكومة تسير على نفس المنوال ويكون مجرد تغير شكلى، وكما يقولون «نحس يروح ونحس ييجى خير من نحس مستمر»، والمطلوب تغيير جذرى فى القوانين والقواعد والأسس التى يسير عليها نظام الحكم وتسير عليها الديمقراطية، وقد جاء ذلك فى صحيفة الوفد ٢٠/٦/١٩٩٥..

*** دكتور عبد العظيم رمضان والأمثال:**

جاء فى أهرام ١٩/٨/١٩٩٥ فى مقال للكاتب بعنوان «هيكل والكهف الناصرى» رقم ٤ يقول فيه: وقد كان خروج هيكل من الأهرام الذى أسسه على أعظم ما تكون المؤسسات الصحفية الحديثة إيذانا بانتهاء دوره التاريخى الإيجابى وابتداء دوره السلبى، فربما كان أصدق ما ينطبق على الأستاذ هيكل هو المثل الشعبى العريق: «فيها أو أخفيها» الذى يعنى أن يشترك المرء فى اللعب أو يفسد اللعب ولا وسط بين الموقفين».

*** دكتور مصطفى محمود والأمثال:**

جاء فى الأهرام ١٦/٩/١٩٩٥ فى مقال للكاتب قوله «سألوا العز ابن عبد السلام أن يقيم حد الخمر على الحاكم التترى وذلك بعد إسلامه فرفض وآثر تركه فى غيبوبة السكر ليكف ظلمه عن الناس وقال: إن تطبيق الشريعة عليه وامتناعه عن الشرب وعودته إلى وعيه وعافيته سوف يؤدى إلى منكر أشد بعودته إلى جبروته وظلمه: وفى هذا يقول العوام: «نوم الظالم عبادة»، ومنذ ذلك الحين سارت كلمة الفقيه مثلا وأصبحت مبدأ مقررا من مبادئ الإجتهاد له أنصاره»..

٣- الفنانون والأمثال:

*** عبد الحليم حافظ والأمثال:**

المعروف أن هذا المطرب الذى عاش من يونيو ١٩٢٩ حتى مارس ١٩٧٧ قد نال

شهرة كبيرة حتى أنه غطى بشهرته على كافة المطربين المشهورين فى ذلك الوقت مثل محمد عبد الوهاب وغيره، والعجيب أنه فى الوقت الذى جاءته الشهرة العريضة كانت صحته تهرب منه، ونصوص الأمثال التى سجلتها هنا ترتبط بمأساته الصحية التى لازمته منذ بداية شهرته حتى وفاته، فقد جاء فى مجلة «السينما والناس» العدد ٣٣٧-٢٧ مارس ١٩٩٣ فى كلمة للصحفية نعم الباز عن ذكرياتها مع عبد الحليم حافظ تقول «عندما وجدت أمام عبد الحليم طبق فول صغير فقلت: هو ده فول؟ ده مجرد لحسة، فقال بسرعة: «اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال».. ده الدكتور سمح بالعافية..

وجاء فى مجلة «الموعد» العدد ٥٥٤ فى ٣ أبريل ١٩٩٣ قول عبد الحليم حافظ: «وعندما تطول فترة المرض ينفض هؤلاء (الزوار) من حولى شيئا فشيئا فلا أعود أجد أمامى سوى الناس المخلصين فعلا، ولكن عندما يضيق صدرى بالمرض أعود وأردد المثل القائل بأن «من يرى مصائب الناس تهون عليه مصيبته» ذلك أننى من كثرة ما أقمت فى المستشفيات كنت أرى أصعب الحالات وأقساها.. ويضيف فالواقع أن سهرى الطويل هو عندى نوع من الخوف. نعم أعترف بأننى أخاف من أن أكون وحدى فى الليل وأقتنع دائماً بما يقال فى الأمثال بأن «النهار له عيون»، وعن الزواج يقول إنه نصف الدين..

أما فريد شوقى: فقد عقب فى مجلة (صباح الخير) ٦/ ١/ ١٩٩٤ على رسالة للكاتب أسامة أنور عكاشة، وعنوانها مانشيت «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه» ويقول - فريد شوقى - «وقد تساءلت لماذا ننتج المسلسل فى القطاع الاقتصادى ويستغرق ٦-٧ أسابيع بينما فى ماسبيرو - وزارة الإعلام - ٤-٥ شهور، والمخرج هو هو والعمل نفس العمل والكاميرات لم تتغير ما هو السبب؟ جاءنى الرد للأسف الشديد مؤلما «دى.. حكومة» وكأن الحكومة مال سايب وكأننا نردد فى عام ١٩٩٣ «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه».

٤- الحاكم والأمثال

*** جمال عبد الناصر والأمثال:**

الحاكم جزء من التيار الثقافى العام يتأثر بهذا التيار ويؤثر فيه ولكنه فى مركز

الحكم والعنصر الأول فى صنع القرار ولذلك فإن ما يجرى على لسانه قد يأخذ فى بعض الأحيان شكل القرار، ومن هنا تأتى خطورة نصوص الأمثال التى تجرى على لسانه فقد جاء فى جريدة (الوفد) ٢٧/ ٩/ ١٩٩٣ فى باب «محاكمات مصرية» بقلم صلاح الأسوانى بعنوان «ناصر: زملائى الثوار هبل ومسكوهم طبل».. وفى خلال الحوار الذى دار بين إبراهيم طلعت المحامى النص من مذكرات نشرها بمجلة (روزاليوسف) فى النصف الثانى من عام ١٩٧٦، وكان صديقا لعبد الناصر ـ يقول طلعت عن عبد الناصر «قال ناصر وهو يلوح بيديه فى يأس» «اللى إيده فى المية مش زى اللى إيده فى النار» «تعرف زملائى دول ما عندهمش مانع يقتلونى لو قدروا أو يحاكمونى، ومش بعيد يشنقونى.. صدقنى..».

هذه الصورة تأتى معها صورة أخرى لعبد الناصر، فقد جاء فى مجلة (الشباب) العدد ٢٢١ ـ ديسمبر ١٩٩٥ فى تحقيق بعنوان «مأذون الرؤساء» بقلم نادية فؤاد ـ مرفق بالتحقيق ثلاث صور للمأذون مع عبد الناصر وحاتم صادق زوج هدى عبد الناصر، وصورة أخرى للمأذون مع الرئيس السادات عندما حضر توقيع قران نجل محمد أحمد سكرتير عبد الناصر السابق والثالثة للرئيس حسنى مبارك يوقع على عقد قران ابنه بحضور كمال الجنزورى رئيس الوزراء الحالى ١٩٩٦ ـ وكان نائبا لرئيس الوزراء وقت القران ـ وقد جاء بالتحقيق على لسان المأذون ويدعى على القصاص وهو يحكى عن ذكرياته فيقول: «إن سيارتى قد تأخرت لمدة نصف ساعة وأنا فى طريقى إلى عقد قران منى ابنة الرئيس عبد الناصر، ويقول قابلنى أعضاء سكرتارية مكتب الرئيس بالغضب».. وأتذكر عبارة مازالت ترن فى أذنى قالها لى أحدهما أنت فاكر نفسك مين علشان تتأخر عن فرح ابنة جمال عبد الناصر؟ وتصورت لحظتها أن الموقف لن يمر على خير، وكانت المفاجأة عند ظهور الرئيس حيث لم يؤثر تأخيرى عليه إطلاقا؟ بل ورحب بى ولم يوجه لى أى لوم، ودعانى للجلوس بجانبه ووجه كلامه للحاضرين وكلهم من المسئولين بأن: «الغايب حجته معاه»، ولابد أن أمرا قاهرا هو سبب التأخير، ومر الموقف بسلام..

*** محمد أنور السادات والأمثال:**

جاء فى كتاب «حرب ٧٣ ـ السياسة والسلاح» وجاء عرض لهذا الكتاب فى

مجلة (روز اليوسف) ٣/ ١/ ١٩٩٤ بقلم عبد الله كمال، يقول محمد حسنين هيكل مؤلف الكتاب عن السادات «كان الرئيس السادات إذا راق مزاجه يرد على تحية الصباح بعبارة من ثلاث «صباح الفل» أو «صباح الورد» أو «صباح القشطة»، أما إذا استبدت به المشاكل والهواجس وهجر مزاجه حالة الرضا والسعادة فإن رده يكون «صباح الخير» أو «صباح النور»، وقد يصل الأمر فى بعض الأحيان إلى أن يقول «من أين يأتى الخير» أو «صباح الزفت والقطران»..

وهذه الصورة تأتى معها صورة أخرى للسادات، فقد جاء فى جريدة «الدستور»[1]، العدد الأول مقال بقلم بلال فضل نقلا عن كتاب عبد الستار الطويلة (السادات الذى عرفته) وينقل الطويلة على لسان الرئيس السادات عن نائبه حسنى مبارك وسبب اختياره أنه شاب وحسن السمعة وذكى وليس طماعا وليس له تاريخ سياسى.. نظيف طاهر.. ويقول عن حسنى: «حسنى ده سمعته زى البرلنت فى الجيش، أخلاقه ممتازة ومحبوب بين زملائه ومالوش فى الطمع، وأنا لازم يكون لى نائب رئيس ما حدش عارف «الأعمار بيد الله»..

*** محمد حسنى مبارك والأمثال:**

جاء فى حديث للمصور ٢٢/ ٩/ ١٩٩٣ مع مكرم محمد أحمد رئيس تحرير المصور قول الرئيس حسنى مبارك «كل شىء بأوان»، «اللى إيده فى النار مش زى اللى إيده فى المية»، «الأكفان مالهاش جيوب»، وفى تقديم الحوار مع الرئيس يقول مكرم «فى حواره الأول قبل اثنى عشر عاما ـ حوار الرئيس ـ جاءت كلمته المشهورة «الأكفان ليس لها جيوب» وكان الرئيس يتحدث يومها عن هؤلاء الذين تنسيهم مصالحهم الخاصة مصالح الوطن، فيتصورونه عزبة يملكونها، وفى حوار الأمس (الأحد) ونشر فى المصور الأربعاء ٢٢/ ٩/ ١٩٩٣ ـ يقول مكرم ـ أعاد مبارك الكلمات نفسها وهو يرد آسيا على شائعات كاذبة تلاحق ولديه»..

وفى موقف آخر يقول الرئيس حسنى مبارك فى جريدة (مايو) ٣/ ١/ ١٩٩٤ أنا لست ضد تغيير الدستور ولكن «كل شىء بأوان»، لست أرى أن تغيير الدستور

(١) جريدة أسبوعية، صدر العدد الأول منها ١٣/ ١٢/ ١٩٩٥.

يمثل لمصر الآن أولوية قصوى على العكس إن لدى مخاوف من أن نقع فى مصيدة تغيير الدستور كما نفتح باب الخلاف واسعا فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الترابط»..

وفى موقف ثالث، قال الرئيس حسنى مبارك فى المؤتمر الصحفى الذى عقده مع الرئيس حافظ الأسد رئيس سوريا أكتوبر ١٩٩٤، فى أعقاب تأجير الملك حسين لبعض المستوطنات الإسرائيلية لإسرائيل فى الأردن لمدة ٢٥ عاما قال «الأرض عرض»..

وفى موقف رابع، جاء فى التليفزيون الساعة ٦ مساء يوم ٥/ ١١/ ١٩٩٤ عند زيارة الرئيس حسنى مبارك لمحافظة قنا لتفقد آثار السيول وعندما كان المحافظ يشرح الظروف والإجراءات التى تم اتخاذها فى أعقاب السيل قال المحافظ: سوف نوزع أراضى على السكان بسعر رمزى ٢ جنيه أو ٣ جنيه، فرد الرئيس أعطوهم الأرض مجانا يعنى «موت وخراب ديار»..

وفى موقف خامس قال الرئيس فى عيد العمال مايو ١٩٩٥ عن الزيادة السكانية لازم نراعى تنظيم الأسرة، لابد نراعيه وإلا فى المستقبل البعيد ١٥-٢٠ سنة هاييجى وقت حانبقى زى بعض الدول بتترك أولادها مش قادرة تأكلهم ولا قادرة تشوف لهم شغل، فلازم نشتغل من دلوقتى، لازم نكون جادين، وكل حاجة لها حدود «وعلى قد لحافك مد رجليك»..

وفى موقف سادس: فى حديث المدينة الذى أذاعه التليفزيون على القناة الأولى ٢٨/ ١١/ ١٩٩٥ سأله مقدم الحديث عن السيول فى أسيوط فرد الرئيس بقوله «لو استطيع أن أبنى كل القرى فى مصر لفعلت بعد أن رأيت وسعدت بالقرى التى بنيت بعد السيول، والمثل بيقول «أطبخى يا جارية كلف يا سيدى»، وقال أيضا فى نفس الحديث «أن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه»، وقال أيضا لأحدهم من المكافحين من أهل الصعيد «أنت الخير والبركة»، وقال أيضا «الدنيا ما اتخلفتش فى يوم»، وقد امتد الحديث حتى الثانية عشر والنصف بعد منتصف الليل..

أما أثر هذه الأمثال التى يرددها الرئيس كثيرا على الجماهير فتظهر فيما جاء فى روزاليوسف العدد ٣٥٢٨-٢٢/ ١/ ١٩٩٦، فى تحقيق محمد هانى بعنوان «ماذا

تفعل لو كان ضيفك الرئيس مبارك؟، وجاء فى إجابة الإذاعية نادية صالح قولها «أنا لا أنسى أبدا عبارتين قالهما الرئيس مبارك عندما تولى المسئولية فى نهاية عام ١٩٨١، الأولى «أنا حسنى مبارك» بمعنى أنه نفسه ولا يشبه غيره، والثانية «الكفن مالهوش جيوب» هاتان العبارتان تعكسان شخصية الحاكم والإنسان بداخله»..

أما على مستوى «وزير» فقد جاء مثلان ضمن عامود فى الصفحة الرياضية بجريدة الأهرام يكتبه د. عبد المنعم عمارة رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة تحت عنوان «أريد أن أقول» يتحدث فيه عن المدربين الأجانب الذين يوجه إليهم السكاكين. يقول «التدريب ليس مجالا لنظريات القوى العاملة أو أسلوب التوظيف وإلا علينا أن نضع كشوفا بأقدمية التخرج.. و «بختك يا أبو بخيت».. ويختم كلمته بالتعليق على المدرب الأجنبى الذى توجه إليه السكاكين ويهرب ويقول.. وسيقول لنفسه وهو يهرب بعيداً «يا روح ما بعدك روح». مثلان ذكرهما د. عمارة فى عامود مكون من ٣٠٠ كلمة.

وفى هذا المجال فقد أشرنا فى المقدمة قبل ذلك إلى ما ردده د. فتحى سرور رئيس مجلس الشعب وترديده للمثل «أمشى عدل يحتار فيك عدوك».. بمناسبة صدور قانون الصحافة السابق..

ولا يقتصر هذا على مستوى الحكم فى مصر ولكنه مما يمكن ملاحظته على مستوى الحكام فى العالم العربى، فقد قال الملك حسين ملك الأردن لمجلة (الصياد) اللبنانية بتاريخ ١٧/ ١٢/ ١٩٩٣ «أقول لكم أن تجارب السنين الطويلة أثبتت لى أن الخطر الأكبر هو الخطر الداخلى، إذ ماذا يستطيع أن يفعل الخطر الخارجى عندما يكون الخطر داخليا؟ عندها يصبح لا مبرر له. الوسيلة الوحيدة هى تحصين الداخل وهو وحده الكفيل بتقليص الأخطار الخارجية وهذا لا يتم إلا بالديمقراطية، والمثل يقول «ألف عدو برا الدار، ولا عدو جوا الدار»، وهو ما يعبر أصدق تعبير عما ردده الملك حسين..

ومن خلال هذا العرض يستطيع القارئ أن يدرك العلاقة الحميمة بين المثل والمناسبة، ويستطيع القارئ أن يدرك أن المثل عبارة عن عنصر فاعل فى التيار الحياتى على كافة المستويات، وأن المستويات الثقافية كلها ابتداء من أقلها إلى أعلاها تستخدم المثل، والملفت للنظر أنها تستخدم المثل نفسه ولا فرق هنا بين رجل

أمى بسيط أو شخص سوقى فى أخلاقه وسلوكه أو شخص يعيش على هامش المجتمع وبين آخر يتصدر الحياة العامة، فالمثل لدى الرجل الأمى هو المثل الذى يردده المثقف أو رجل الدين أو السياسى، ولكن تختلف الظروف الحياتية لدى كافة الناس ومن ثم تختلف المناسبة.. فالمثل الذى يقول «اللى إيده فى المية مش زى اللى إيده فى النار»، هذا المثل تردد بين اثنين من الحكام وهو بمعنى أن الناس لا تدرك ما يعانيه الحاكم من ضغوط ومن ثم فهى تنقد الحاكم وتتهم وتطلق الإشاعات، وهنا يستطيع القارئ أن يدرك الحلقة المفقودة بين الحاكم وبين المحكومين، وهذه الحلقة تتمثل فى افتقاد الشفافية أو أن الجماهير لا تستطيع أن تعى ما يدور..

أما هذا المثل لدى بسطاء الناس فهو يدور بين من يتحملون مسئولية شخصية كالأب الذى يعانى من ضغوط مادية لا يدركها الأبناء أو أفراد الأسرة بشكل عام.. وفى الحالتين فإن المثل يكشف عن تباعد فكرى بين الطرفين أو سوء تقدير.. وأخيرا فإن هذا المثل يعبر عن شكوى ممزوجة بالألم والضيق أو أنين مهذب يردده الذين أوقعتهم الظروف فى مواقع المسئولية، ولا يخفى ما لهذا الأنين من تأثير على صانع القرار سلبا أو إيجابا..

ومن ناحية أخرى فإن المثل قد يأخذ ما هو أبعد من ذلك، وقد يصبح فى بعض الأحوال قرارا جمهوريا، أو بمعنى أدق فى مستوى القرار الجمهورى واجب التنفيذ ونحن نشير إلى الموقف السادس للرئيس حسنى مبارك والذى قال فيه المثل «أطبخى يا جارية كلف يا سيد»، أو الموقف الرابع الذى قال فيه الرئيس «أعطوهم الأرض مجانا. يعنى «موت وخراب ديار»، وقد أصبح هذا المطلب واجب التنفيذ..

ثالثا: الأمثال فلسفة للمجتمع

المعروف أن سلوك الإنسان هو انعكاس لثقافته ونتاج لماضيه الحضارى وتفاعلهما مع إيقاع حياته اليومية، وحياة الإنسان سلسلة متصلة من التجارب الناجحة والتجارب الفاشلة، ولا تتوقف هذه السلسلة إلا بموته ودخوله إلى عالم الآخرة الغامض، وهذه السلسلة يتولد عنها مجموعة من الخبرات التى تتراكم، وقد تكون هذه الخبرات مقبولة ومفيدة وقد تكون ناقصة وضارة، وفى الحالتين يحاول الإنسان أن يستفيد من هذه الخبرات الإيجابية والسلبية، ولاشك أن نصوص

الأمثال تقع فى دوامة هذه الحركة المتواصلة، ومن ثم فهى عبارة عن خبرات قد تكثفت فى نصوص يقدمها الشخص للغير، أو يذكر بها نفسه بقصد الإفادة أو التبرير أو حتى التسلية الدارجة..

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نفهم اتجاه الأحداث إلا من خلال ما يردده الناس من أقوال وأفكار تدفعهم بتلقائية إلى صياغة الأحداث وتوجيهها، كما أن ارتباط النصوص بالأحداث يعطيها المعانى المتبادلة بين طبيعة الحدث وانطباعاته على دخائل الناس، وأن ترديد نوعية من النصوص وربطها بالأحداث السائرة إنما يشير إلى أن الماضى يلعب دورا بشكل أو بآخر فى التأثير على حركة الناس كأفراد أو جماعات، وعلى وجه الخصوص تلك النصوص التى ارتبطت بالعصر الذهبى حيث النموذج والقدوة..

وخلال حركة إيقاع الأحداث اليومية سوف نجد الشخص التقدمى الذى يتغير ويبتكر، والشخص الذى تجمدت أفكاره عند مرحلة معينة، وأصبح يسير وراء الأجيال الماضية «ولا جديد تحت الشمس» وقد قفل باب الإجتهاد، وسوف نجد الشخص الإنعزالى الذى يسير «جنب الحيط» وهو شخصية ضعيفة لا تقوى على الفعل أو لا تقوى على التفاعل الإيجابى مع الأحداث، وسنجد الشخص الغاضب أو المحبط أو الشخص الشرير أو الشخص الأمين والمخلص والمتعاون والشريف والطيب.. إلخ. وهذه النوعيات من الناس وغيرها تستخدم الأمثال للتعبير عما يدور ويؤكد اتجاهاتها، وربما كانت الأمثال هى النص الشعبى الوحيد الذى لا يستخدم إلا على هذا المستوى الفردى، بينما نجد أن صور التعبير الأخرى تستخدم جماعيا ـ الأغانى ـ الرقص ـ الحكايات الشعبية ـ الألعاب الشعبية ـ الموسيقى.

والسؤال المطروح لماذا نخص الأمثال بفلسفة الناس وسلوكاتهم اليومية أو نخصها بالتعبير عن الشخصية المصرية بشكل عام فى الوقت الذى يقول فيه العلماء بأن المداخل لدراسة الشخصية كثيرة وغير محدودة؟..

وتقول إن هذه النصوص لا تتعلق بزمان معين أو مكان محدود أو بفئة خاصة أو بنشاط بشرى محدد، ولكنها تتعلق بكل الناس وفى أى مكان وتتصل بكافة أوجه النشاط البشرى ماديا وروحيا.. فالصورة قد تعبر عن موقف معين فى فترة

زمنية، وكذلك الحال بالنسبة للأغنية، وأيضا كافة أوجه النشاط الروحى عاطفيا وعقليا، أما على المستوى المادى والاقتصادى فى علاقات الناس، فإن هذا الجانب قد يرتبط بفئة معينة أو بفترة محددة وهو فى حالة من التغير المستمر صعودا وهبوطا، ولا ينهض دليلا على الشخصية بشكل عام ولكنه يدخل كمؤشر، وكذلك الحال فى كافة صور التعبير الروحى سواء على مستوى الترفيه أو الإنتاج ولا يبقى من كافة صور التعبير إلا نصوص الأمثال، وسوف نعود إلى هذه الفكرة عند الحديث عن المضمون والهدف، أو بمعنى آخر فلسفة المثل..

ومن ناحية أخرى فإننا نقول إن هذه الأمثال عبارة عن جمل سائرة ولكننا قد نضيف إلى ذلك أن هذه الجمل سارية فى الضمير واللاشعور، وتعبر عن الحركة الأخلاقية والفكرية التى تصاحب السلوك، ومن هنا نستطيع أن ندخل كافة الجمل والتعبيرات الشائعة بين الناس سواء كانت صفات ملتصقة بالسلوك أو قيمة نظرية أو مبدأ فكرى أو توجيه سلوكى أن نفثات نفسية..

فعندما نقول «رجل همباك» أو «رجل كداب زفة» فإن شخصية هذا الرجل «الهمباك أو كداب الزفة» هى شخصية موجودة فى المجتمع ولها دور داخل كافة المستويات فى المجتمع، فكداب الزفة أو الهمباك أو الأونطجى مصطلحات تطلق على شخصية لها مواصفات معينة تواضع عليها الناس، فهى شخصية تتحدى وتدس أنفها فى كل شىء لتوحى للغير بقدرتها على الحل أو الفعل دول أن تفعل شيئا، أو هى شخصية تهرول إلى أماكن الضجة أو التفاعل بين الناس لتظهر فى الصورة بشكل زائف وتنسب لنفسها أهمية كبيرة فى حل المشاكل أو توحى أنها تقضى حاجات الناس دون عمل حقيقى، وهى شخصية «على بك مظهر» فى مسلسل «على بك مظهر» الذى أذيع فى التليفزيون منذ سنتين تقريبا ـ نحن الآن ١٩٩٦ ـ ومثله بكفاءة ممتازة الممثل القدير محمد صبحى، وهذه الشخصية عندما يحين وقت الفعل الحقيقى فإنها تتهرب أو تقدم المبررات والتأكيدات التى تحير الشخص، وعندما تنتقل هذه الشخصية إلى مكان آخر فإنها تتصنع التباهى الكاذب وتوحى بأنها فعلت كذا وكذا اعتمادا على أن المستمع لن يشغل نفسه بالتحقيق من هذا القول، أو هى شخصية قد تعطى الوعود الزائفة وتجعل «من البحر طحينة»

وتجيد إقناع المستمع بما تقول. . وهذه الشخصية موجودة فى كل المستويات حتى مستويات المسئولية الإدارية العليا وهى تحب الظهور والحديث عن النفس بأسلوب الكذب المغلف بقليل من الصدق.

وعندما يطلق المجتمع هذه المصطلحات «كداب الزفة» أو «الأونطجى» أو «الهمباك» إنما يكون قد نحتها للدلالة على شخصية موجودة فى المجتمع تؤثر فيه ويتأثر بها سلبا وإيجابا. . والمجتمع عندما يصوغ أعمال أو حركات هذه الشخصية فى هذه الكلمات إنما يعنى أن هذه الجمل عبارة عن تشخيص لظاهرة سلبية إكتشفها المجتمع، ويحاول التحذير من آثارها السلبية أو على الأقل التخفيف من مشاكلها أو تعرية هذه الشخصية ومن ثم فقد صاغها بأسلوب شعبى سائر.

وفى هذا المجال فإن هناك مجموعة من الأمثال عبارة عن صفات للرجل أو المرأة وهذه الصفات لا تعنى المفهوم القاموسى للكلمة، وإلا لجمعنا كل الصفات الموجودة فى اللغة العربية وحولناها إلى أمثال ولكن الصفات التى يعنيها المجتمع الشعبى فى مصر هى صفات أخذت مدلولا متميزا يحمل دلالات مصرية محلية تعبر عن رؤية الرجل للمرأة ورؤية المرأة للرجل ورؤية المجتمع لكليهما.

فتعبير «راجل ولا كل الرجالة» ماذا تعنى هذه الصفة التركيبية أو المركبة؟ «ولا كل الرجاله» إنها تعنى ـ كما نفهم ـ صيغة مبالغة على صورة صفة من الصفات فكلمة «كل» تعنى «الجميع» أو «مطلقا» وهو ما يدل على المبالغة التى تعنى التفرد والتميز مما يعكس طبيعة الشخصية المصرية العاطفية التى تبالغ فى الحب. . وتعبير «راجل كُبَّرة»، وكلمة «كبرة» بضم الكاف وشدة مفتوحة على الباء تعنى المبالغة فى السمو والعظمة أى أكبر من الكبر، أو هو فوق الحد الأقصى للقيمة، وتاء التأنيث هنا تعنى بعض صفات المرأة المعروفة فى المجتمع وهى الذوق والرقة واللطافة. .

والمثل «راجل ذوق» تعنى الكثير من القيم النبيلة كالرقة واللطافة والإنسانية، وحب الضعفاء والرأفة والرحمة والجود. . إلخ.

والمثل «راجل عشرى» بكسر العين وفتح الشين. هذه الصفة تحمل معنى حب الجماعة والتعاون وحسن السمعة ولين العريكة وطيبة النفس وحب الخير والإثرة، وبمعنى أخرى كل ما يلزم الحب المتبادل بين العشيرة والفرد.

والمثل «راجل بوشين»، كلمة «وش» بكسر الوار وسكون الشين بمعنى «وجه» وهو رجل له وجهان يستخدم كلا منهما فى الوقت الذى يناسبه أى فى الوقت الذى يتفق مع مصلحته الشخصية ودون أى اعتبار آخر، وهذان الوجهان ـ على الإطلاق ـ يحملان عدة معان متناقضة، وإذا جمعنا كافة الأضداد التى تحتويها اللغة العربية فسوف نصل إلى ما لا نهاية. أى التضاد على الإطلاق.

ولاشك أن هذه الأساليب مما يتفق مع طبيعة الشخصية المصرية التى تهوى المبالغة تحت تأثير دفء العواطف أو تطرفها، وهكذا فإن المدلول الشعبى يعنى خصوصية التفاعل بين الفرد والجماعة فى مصر وهو ما يكشف عن الأطياف اللطيفة أو الخافتة أو غير المرئية فى الشخصية المصرية..

ولندخل إلى مثل آخر يحمل مدلولا شعبيا يعبر عن طبيعة الشخصية المصرية، فالمثل «راجل رايق»، كلمة «رايق» من راق الماء ورقّ، أى أصبح صافيا، وهذا هو المعنى القاموسى ولكن المعنى الإجتماعى أو الشعبى هنا يعنى أنه رجل منشرح الصدر والمزاج، سعيد بما هو فيه ويتمتع بكمال الرضا بصرف النظر عن الوضع الإجتماعى أو المادى، ومن ناحية أخرى فإن هذا التعبير يصدر عن صاحبه ربما بمزيج من السخرية والضيق أو الإعجاب، وهو مالا يفهم على حقيقته إلا من خلال المحيط الذى قيل فيه وهو ما يشير فى النهاية إلى الخصوصية والتميز أو المحلية..

فالمثل الذى يقول «للصبر حدود» بمعنى أن هناك حدا أقصى لدرجة التحمل، وهو من ناحية عبارة عن صيحة تحذير أو تهديد أو تخويف، و«الضغط يولد الإنفجار» وعلى الطرف الآخر أن يهتدى إلى حدود الطاقة، وهذا الصبر إذا زاد عن حده الأقصى لدى الصابر ولم ينفجر على غيره أو على نفسه فإنه يتحول إلى بلادة وضعف، مما يدفع الطرف الآخر إلى الطمع وزيادة الضغط أو الاستهتار، وكلمة الحدود لا تتوقف عند قيمة الصبر ولكنها عامة. فالظلم له حدود، والكفاح له حدود وكل القيم الإنسانية لها حدود تتوقف عندها طاقة الإنسان وإمكاناته، وعندما يهتدى الإنسان بالممارسة والتفاعل مع الغير إلى هذه الحدود فإنه يوائم بين الممكن والمستحيل وهى فى النهاية تتعلق بالذكاء الإجتماعى، وهكذا يصوغ الناس

فلسفتهم اليومية، فكلمة حدود التى دخلت مع كلمة الصبر كونت فلسفة التعامل الإجتماعى وأبعاده النفسية..

والمثل «راجل محدث نعمة» الصفة هنا مركبة وكلمة «محدث» مصدر مبنى للمجهول، ولم يقل الرجل الشعبى «حديث النعمة» وهو التعبير الصريح المباشر ولكنه لجأ إلى الصياغة التى تحمل صيغة المبالغة، ويؤلف منها صياغة مركبة ممزوجة بذوقه وتعبر عن انطباعه لكى تكون صيغة المبالغة، ويؤلف منها صياغة مركبة ممزوجة بذوقه وتعبر عن انطباعه لكى تكون قمة البلاغة، وكلمة «نعمة» قد تحمل مدلولا دينيا باعتبار أن ما يملكه الإنسان هو من نعم الله سبحانه وتعالى ولا دخل للإنسان فى ذلك.. وهذا المدلول فى النهاية يعنى السخرية والتحقير من تلك الشخصية التى تتباهى بغنى مفاجئ ولا تعرف كيف تتعامل مع هذا الغنى الفجائى فأصيبت بصدمة أفقدتها توازنها كالسفه والتبذير الشديد أو الاستعلاء الأجوف أو الهوس بالتباهى، وينطبق عليه المثل الذى يقول «اللى معاه قرش ومحيره يجيب حمام ويطيره».

أما عندما يقسم المصرى ـ على المستوى الشعبى ـ وهو يضع لقمة من الخبز على جبهته ويقول «على النعمة» فإنه يعنى أن هذه النعمة ـ على بساطتها تؤذينى وتزول عنى إذا كنت كاذبا أو مدعيا أو منافقا أو ظالما.. إلخ أو أن الله يعاقبنى بحرمانى من نعمته ـ الخبز ـ إذا كنت متجنيا، ألا تعنى هذه الإشارة إلى أهمية الخبز فى حياة المصريين حيث يقول المثل «إن جه العيش يبقى المش بشرقة» أى يكون «المش» ضربا من الرفاهية. ألا تشير هذه النصوص إلى أدنى مستويات المعيشة التى يعانيها بعض الناس حتى أنهم يقولون فى مثل آخر «الحاف يربى الكتاف» والحاف هو الخبز يأكله الفقراء دون غموس.

أما بالنسبة للمرأة فتتوقف عند رؤية المرأة للطرف الآخر، فالمثل يقول «الست من غير راجل ما تسواش حاجة» هذه الصورة تعطى مفهوما تقليديا للنظرة الإجتماعية للمرأة رغم أنها خرجت إلى سوق العمل ونالت قسطا من التعليم، ومع ذلك فمازالت المرأة تفتقد الكيان الاجتماعى المستقل، ويؤكد ذلك المثل الذى يقول «البنت شوكة فى رقبة أبوها لحد ما يموت» ذلك أنها ـ إجتماعيا ـ تحمل

الإسم والعرض والشرف، وهى مسئولية خطيرة لا يحس بها إلا أبو البنات، وهو ما يشير إلى أن سلطان العلاقات الأسرية ومازال يؤدى دوره، وأن خروج البنت إلى العمل والتعليم لم يغير تلك القيم الراسخة، أما المثل «الست ست والراجل راجل» فهو يعنى أن هناك فارق، وأن هذا الفارق ـ كما يعنى المثل ـ ليس هو الفارق البيولوجى، ولكنه فارق اجتماعى بالدرجة الأولى يحتوى على قيم وقوانين تندرج تحت مفهوم الرجل بل إن هذا المثل يؤكد تلك المفاهيم الواضحة فى المثلين السابقين. .

أن الأمثال هنا لها دور كاشف عما يدور فى الظاهر والباطن بصدق وتلقائية. .

رابعا: المضمون والهدف

فى هذا المجال يمكن القول إن المجتمع المصرى لم يدرس بعد دراسة واضحة المعالم وكل ما نشر عن المجتمع ـ البشر ـ عبارة عن اجتهادات فردية فالأوروبى الذى جاء إلى مصر وشاهد ظاهرة هنا وأخرى هناك ومزج ذلك بخلفياته الثقافية، يتحدث عن المصرى حديث الناقد وهو حديث مبتسر ولا يعرف الأبعاد والخلفيات، أما الباحث المصرى فهو يعيش فى دوامة الحياة اليومية ويعانى مثل غيره ويتأثر بذلك ولديه خلفيات ثقافية، ثم يقول كلمته متأثرا بما يحيط به على المستوى الفردى والجماعى، وهناك الباحث الذى ينظر إلى المجتمع من خلال التاريخ ويقدم أحكاما كلية تنزع إلى التعميم وليس لها علاقة بإيقاع الحياة اليومية، وهناك الباحث الذى يرى المجتمع من خلال أرقام وحسابات، وهذه الإجتهادات كلها لا تعبر إلا عن رؤية فردية ومتأثرة بظروف خاصة، ولذلك فهى تنقسم إلى كتابات قادحة وأخرى مادحة أو محايدة وكافة هذه الاجتهادات تمت بناء على وثائق محدودة، ومن ثم فإنها تخضع لآفة النظرة الجزئية أو آفة الهوى والغرض أو آفة التحيز والتبرير، أو آفة التمجيد، ومن جانبنا فإننا نرى أن أصدق معيار هو ما يقوله الناس ويرددونه فى حلهم وترحالهم، فى تعاملهم وأوقات إنتاجهم وفى أثناء راحتهم وسكونهم فى أحزانهم وأفراحهم. .

وهذه الأمثال ـ كما نقول ـ عبارة عن جمل جاهزة كونتها التجربة الحياتية، وهذه الجمل فرضت نفسها على إيقاع الحياة اليومية. . كما أنه لا يمكن الإستغناء

عنها لأنها أفكار جاهزة لاختصار التفكير فى الحلول واختصار الوقت وهى أفكار لم يتعب أحدهم فى توليدها ولكنه ـ الفرد ـ حفظها بتكرار السماع..

ومن المستحيل أن تفقد الأمثال ـ بشكل عام أو بكليتها ـ أهميتها أو الدور الذى تؤديه إلا إذا حدثت تحولات جذرية فى قيم ومفاهيم المجتمع وفى فترة وجيزة وذلك بأن يدخل فى بنية المجتمع المصرى (حاليا ٦٠ مليون من السكان).. ثلاثون مليونا من البشر الوافدين من مكان آخر وفى فترة وجيزة ومع التغيير العرقى يحدث التغيير الفكرى والقيمى، كما أن هذه الأمثال لا يمكن أن تفقد قيمتها رلا إذا حدث تغيير مادى فجائى وبشكل جذرى كأن يتحول دخل الفرد إلى عشرة أضعاف وفى فترة وجيزة ـ وإذا كانت هذه التحولات مستحيلة الحدوث فمعنى ذلك أننا أمام تواصل فكرى له ارتباط مادى وعرقى، ومن ثم فإن النصوص الشعبية وأولها الأمثال لا يمكن أن تفقد دورها.

والمفترض أنه قد يتجاوز المجتمع عن أفراد من هذه النصوص المثلية بحكم التغيير ولكنه لا يستطيع أن يلغى دور هذه النصوص. ومن ناحية أخرى فإن الفكر الشعبى يتهيب القفز إلى المجهول حتى ولو كان الجنة الأرضية، ويسير على مبدأ مثلى يتكرر كثيرا يقول «اللى تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش».. وهكذا فإن النص المثلى يصبح جزءا من العادة والتقليد والعرف، وفى النهاية الأمان فى مواجهة الغد المجهول..

ومن ناحية أخرى ورغم أن الجملة المثلية تعبر عن اتجاه فردى يجد فيها كل واحد ما يدعم رأيه، فإنها فى ذات الوقت يمكن أن تكون مؤشرا لاتجاه عام ومن ثم فإنها قد تعبر عن رأى فردى، وفى نفس الوقت تعبر عن اتجاه جماعى أو رأى عام وخاصة إذا تم تجميعها وتصنيفها بشكل واضح، بل إن هذا الرأى العام المثلى أشد تأثيرا لأنه إما أن يكون عنصرا مساعدا ومؤثرا فى عملية التطوير والدفع الإجتماعى والتقدم وإما أن يكون عائقا يقف أمام التقدم، وفى الحالتين ليس من السهل اكتشاف هذا الإتجاه ذلك أنه اتجاه غير مرئى أو غير محسوس لدى أجهزة الحكم أو المثقفين أو الاقتصاديين أو السياسيين...

والسؤال المطروح هو لماذا يسرى هذا التيار الفكرى العام بتأثيراته دون أن يحس به أصحاب الرأى أو القادة؟..

والإجابة أن هذه الجمل الطائرة التى تتردد على كل المستويات كرأى فردى فضلا عن أنها منسوبة ـ خطأ ـ إلى الطبقات الدنيا والشعبية دون غيرها هذه الجمل ليس لها دور واضح ومحدد فى التوجيه.. كما أن هذه الحكم المنسوبة للشعبيين تثير لدى أصحاب الرأى النزعة الاستعلائية.. فكيف يسلب رجل الشارع البسيط الأمى كلمة المثقفين والقادة؟ وكيف يقبل هذا القائد بجملة طائرة وهو الذى استوعب حكمة البشر خارج البلاد وداخلها؟ وكيف يقبل هذه الجملة التى تدور بشكل تلقائى بين الغلابة والمساكين تعبيرا عن أحوالهم وظروفهم بأن تمثل رأيا عاما مؤثرا ومن ثم يضعها فى الاعتبار؟..

ولاشك أن الحكمة سلوك فطرى لدى البشر ـ على اختلافهم ـ والجميع يتوسل بها لمواجهة الحياة، كما أن الحكمة ليست احتكارا لطبقة دون أخرى ولكنها فكر سلوكى يدور على الشيوع، وكل فرد يستخدم هذا الفكر المنطقى بما يتفق مع ظروفه الخاصة، وربما كان شيوع هذه الجمل على المستوى الفردى هو الذى يلفت النظر إلى أهيمتها وما ساعد على ذلك هو أن هذه النصوص لم تجمع حتى الآن وبالتالى لم توضع فى كتل فكرية أمام الباحثين أو أصحاب القرار، والسبب الآخر أن هذه الجمل الفكرية التى تنتمى إلى التاريخ القريب أو البعيد قد تعنى الفكرة القائلة بالجبرية التاريخية وهو رأى مرفوض لدى البعض أمام حقائق التطور وسرعة إيقاع الأحداث..

أن الفكرة القائلة بالجبرية التاريخية ترى أن حياة الإنسان تراوح بين مزاوجة حاسمة بين المادة والروح، أما المادة فهى متغيرة على الدوام ويمكن الوصول عن طريقها إلى قدر كبير من الدقة وهى أساس التطور الحضارى المادى وأما بخصوص الروح فنجد أن الإنسان يعيش ضمن مجموعة من القيم العليا التى رسمها الإنسان للتعامل مع أخيه ودعمتها الأديان على اختلافها، بمعنى أن الأمانة والحق والعدل والخير والجمال والصدق كلها قيم توصلت إليها البشرية طوال تاريخها الحضارى ولكنها تظل فى مرحلة النسبية وبعيدة عن المطلقة، وهذه النسبية هى التى تمثل المجهول أو المستقبل بالنسبة للإنسان..

أن تغليف النصوص المثلية بالأفكار التاريخية التى تعنى النمط وقد تعنى الجمود

قد صرفت الباحثين عن الإهتمام أو البحث وإعادة النظر، علما بأن الرصد الدقيق لهذه النصوص يتيح الفرصة لملاحظة تطور السلوك العام، ويمكن أن يكون نقطة انطلاق لملاحظة هذا التطور فيما بعد وتقييمها تاريخيا.. أن هذا الإنجاز لو تم بالأسلوب الصحيح لانكشفت السلبيات الكامنة فى الثقافة الشعبية ونعتقد أن خطوة البداية هى النفاذ إلى الأفكار المتوارية فى النصوص المثلية والتى تمثل فلسفة رجل الشارع..

ومن ناحية أخرى فإنه لا يجوز أن نقول إن نصوص الأمثال منتزعة من سياقها ومعناها أو مضربها التاريخى لأنها تستقل فى معناها ومبناها وتدخل ضمن السياقات الجديدة والمتجددة، وفى هذا المجال علينا أن نفرق بين استقلال هذه النصوص واكتمالها وبين المضرب. بمعنى آخر علينا ألا نخلط بين المورد والمضرب. فالمورد والمضرب ضروران فى مجال الدراسة ولكن الجملة المثلية لا تنقص بدونهما أو بدون أحدهما، وهنا فإن الجملة المثلية تتحول إلى فكرة مجردة أو نموذج نظرى. فكلمة «زى» أو «مثل» التى تبدأ بها الجملة المثلية لا تنقص من القيمة الفكرية باعتبار عدم وجود أحد طرفى أداة التشبيه فعندما نقول «زى خيال المآتة» فعدم وجود المشبه لا ينقص من معنى المثل. وهكذا تصل الجملة المثلية إلى أن تكون فكرة مستقلة مثلها فى ذلك مثل الحكمة وتستطيع أن تقتحم كافة المجالات وتوسع استخداماتها وتتأقلم مع كافة الظروف المتغيرة فى كل زمان ومكان باستثناء القليل الذى يسقط بالتقادم أو انتفت الحاجة إليه.. أو ارتبط بمكان تغيرت معالمه أو بحادثة زمنية تاريخية منعزلة..

خامسا: الأمثال فى فكر القدماء

أشرت فى مقدمة الجزء الرابع إلى بعض الأفكار أو التعريفات حول المثل لدى بعض القدماء، وفى هذه السطور نضيف ما تيسر لنا حتى نزيد من إيضاح رؤية القدماء ووضعها بجانب التصورات أو التعليقات الحديثة..

فقد جاء فى كتاب الفهرست لابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحاق ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م ص ٨٤ تحت عنوان «معنى المثل» يقول: «قال يعقوب إن البعير

إذا حمل عليه فأثقله الحمل مد عنقه واعتمد على ذقنه فلا يكون له فى ذلك راحة، يقال لرجل إذا تكلف أمرا أو نزل عليه أمر فضعف عنه فاستعان بأضعف منه عليه هذا معنى المثل» ويعقوب هو الذى عرف المثل كان فى حضرة الأثرم/ ت ٢٣٠هـ، وهو صاحب أبى عبيدة ـ وهو أبو الحسن على بن المغيرة الأثرم/ وهو يعقوب بن السكيت مات ٢٤٦هـ/ وقد عرف المثل تعليقا على سؤال لم يجب عليه الأثرم. . .

وقد جاء فى تفسير ابن كثير جـ٤ ـ الذيل ص ١٩ ما يلى: عن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال: كان الكتاب الأول من باب واحد وعلى حرف واحد ونزل القرآن على سبعة أحرف. زاجر وآخر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا».

وجاء فى نفس الكتاب جـ ٣ ص ٤١٤» قال الإمام أحمد حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنى ابن لهيعة عن أبى قبيل لعمرو بن العاصر رضى الله عنه حيث قال: عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل، وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص حيث يقول الله تعالى «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون». .

وأقول تعليقا على الإشارات السابقة إن تفسير يعقوب بن السكيت وهو من اللغويين يعنى أن الحجة المثلية أضعف من أن تعضد رأى قائلها، ومن قال إن المثل حجة دامغة حتى يقارنها ابن السكيت بالقانون أو الحقيقة المطلقة؟ إن الجملة المثلية ليست قانونا يجرى تطبيقه على الجميع ولكنها عنصر مساعد لدعم الرأى وللمستمع أن يأخذ بذلك أو يرفضه. .

أما إشارتى تفسير ابن كثير ففى الإشارة الأولى جاء على لسان الرسول ﷺ أن الأمثال هى إحدى الأسس السبعة التى نزل بها القرآن ووظيفتها الإعتبار أو العظمة ودورها أخلاقى يتفق مع المبادئ أو القيم التى جاء بها الإسلام، وفى الإشارة الثانية فهى تعنى أن الرسول ﷺ استعان على آداء رسالة الإسلام بالأمثال التى هى قطع من الحكم بقصد الوعظ والإعتبار، وأن عمرو بن العاص قد عقل عن

الرسول ألف مثل لم يحفظها فى يوم وليلة، ولكنه علقها بالملازمة والمتابعة مما يدل على أن الرسول ﷺ كان يردد هذه الأمثال فى حله وترحاله واعتبرها وسيلة من وسائل نشر الإسلام.

وأخيرا فإن هذه الأمثال هى أفكار أثرت فى حياة الناس وحظيت بالانتشار الواسع ودخلت ضمن المنظومة الثقافية على كل مستوياتها شعبية كانت أو ثقافية، وقد حرصت على إيراد الأمثال مع مضربها وخاصة فى المجال الصحفى أو الثقافى حيث ينكشف الدور الاجتماعى والسياسى والثقافى والدينى والاقتصادى الذى يؤديه المثل. . وقد لاحظنا تعدد الثقافات التى تستدعى المثل وهى ثقافات قد تبدو متباعدة وتسجل الثقافة الجادة، كالدين والسياسة والاقتصاد أو ثقافة التسلية أو الجانب الاستمتاعى فى الحياة كالفن واللعب وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على أن هذه النصوص هى جزء من النشاط الثقافى فى المجتمع ومن ثم فإننا نكرر أنها المدخل الصحيح لدراسة المجتمع على الطبيعة. . .

١٩٩٦/١٢/١٥

دكتـــور

إبراهيم أحمـــد شعـــلان